بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان
العدد ١ (خريف وشتاء ١٤٣٠ - ١٤٣١ هـ. ق/ ١٣٨٨ هـ. ش)، ص ٢١ ـ ٣١

ما هي ميزات المدينة الفاضلة الجبرانية في آثاره الأدبية؟[١]

سردار أصلاني*

الملخص

لكل مفكر وأديب رسالي مدينة فاضلة. كان جبران خليل جبران أديبا رسالياً واصل دون تصريح في حياته وضْع أساس مدينة فاضلة خاصة به، بعد ما طرحها أفلاطون وفارابي وسنت أغوستين الإنكليزي في تاريخ الفكر الإنساني. وهناك ميزات بارزة لمدينة جبران الفاضلية وهي الحرية، والحب، والعدالة، والولع الشديد بمعرفة الحياة، والقيم الإنسانية والأخلاقية المبتكرة، وفكرة الخلود والبقاء.

فالحرية في رؤية جبران تحرّرٌ من كل قاعده شائعة خاطئة وأية قوة رادعة أمام ازدهار قدرات الإنسان. والحبّ حب الله والطبيعة والكون وأبناء البشر من خصائص مدينة جبران الفاضلية. والعدالة هي التي ترك جبران لبنان للقائها في ديار الغربة، وإن واجه بطريق مسدود، ولكن تابع هذه الفكرة حتى لقي حتفه. والولع الشديد بمعرفة الحياة أدى به إلى عدم التزوج، وذلك للتأمل والانفراد: تأمل في الله والحياة والموت ومصير الكون والإنسان. وفيما يخص القيم الإنسانية والأخلاقية المبتكرة فإن جبران سعى في إحياء الفضيلة الإنسانية والعلم والمروءة والصداقة بأسلوب مبتكر. وأخيراً حصل على فكرة الخلود والبقاء وذلك بكسبها تجارب باطنية والتأثر بالفلسفة البوذية التي أدت إلى فكرة الحلولية أو تناسخ الأرواح.

المفردات الرئيسية: المدينة الفاضلة الجبرانية، القيم الإنسانية والأخلاقية، تناسخ الأرواح، التقمص، الحلولية، الأدب المهجري الشمالي، الأديب الرسالي

المقدمة

كان جبران خليل جبران من المهاجرين اللبنانيين الذين غادروا البلاد إلى أميركا الشمالية بحثاً عن القيم الإنسانية. شعَر بالاستبداد السياسي وخَنْق الحريات والظروف غير المؤاتية لترويض الفكر والدفاع عن الإنسان الذي كان مثالاً من الله. فترك الأهل والأقرباء

---

١. تاريخ التسلم: ١٣٨٥/١/١٩ هـ .ش (٢٠٠٦/٤/٨م)؛ تاريخ القبول: ١٣٨٥/٨/١٦ هـ. ش (٢٠٠٦/١١/٧م).

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان

ومسقط رأسه، وبعد مواجهته الروادع العنيفة عاش في دياره المحجوبة أو مدينته الفاضلة في بلاد نائية بعد يأسه هناك أيضاً. حاول كثيراً لإصلاح الأحوال الفكرية والتصرفات الاجتماعية عند الناس، ولكن خابت آماله ورجع صفر اليدين.

تبرّم جبران من المجتمع الإنساني والتقاليد البالية والأعراف السائدة فيه، وفتّش عن الحياة المثالية في فكره أو دياره المحجوبة التي لم تكن في لبنان ولا في أميركا ؛ إذ واجه بطريق مسدود في ديار الغربة، وفضّل الأسد والحيوانات الأخرى في حديقة الوحوش على الإنسان الذي يضحك في وجه أخيه الإنسان ويكون سيفاً مسلولاً عليه يضربه في ظهره.

وبعد خيبته من الإنسان لتقاليد الناس ومعاملاتهم القائمة على أساس الرياء والنفاق والمصالح الشخصية، تأمّل وتهمّس في نفسه، وبنى لها مدينة فاضلة على أساس الحياة المتحدة والوادعة البسيطة التي لاتتواجد فيها الفروق القائمة على مثال الحياة المدنية. الطبيعة والغابة هما رفيقتان خياليتان له. عاش فيهما خيالياً وعملياً، وخَطّط مدينة فاضلة على أساس الحرية والكرامة والسماحة والصداقة والبساطة وسائر الأخلاق السامية التي كانت تدور مدينته حولها في خياله الخصب.

١. الحرية

الحرية من المقومات الأساسية في الأدب الرومنسي، وهي الأساس الأول الذي بني عليه الأدب الجبراني ومدينته الفاضلة ؛ إذ إنه كان رومنسياً في اتجاهه الفكري والأدبي. هذه الميزة هي التي سببت الأدب الجبراني يظهر بما ناله في أرجاء العالم من التقدير والإعجاب والإقبال الشديد إليه. رغم أنه كان جبران أُرتوذكسي المذهب أُسرياً، ولكن لم يتبع هذا المذهب ودعا إلى التسامح والتسامي في الدين.

وجدير بالإشارة أن نزعة الحرية عند جبران لا تحصر في الحرية الدينية فحسب، بل تشمل كل نواحي الفكر ومرافق الحياة. الحرية في الفكر وما إليه، والحرية في الأدب وأساليبه والاتجاه النقدي والعروضي والحرية الاجتماعية والسياسية، وأخيراً حرية الإنسان من كل ما يقيم دونه: عراقيل وشطوط وحدود.

كان دين جبران دين الحرية والدين العاطفي الرومنطيقي الذي اكتسبه من تجاربه الذاتية وتأملاته الكثيرة في أحضان الطبيعة، واللجوء إلى الغابة والجبل والشلال والتأمل في مظاهر الكون، والسعي الكثير في معرفة الحق هو الذي تعوّده جبران. فقد صرّح كثيراً في آرائه عن الحرية الدينية حتى واجه مشاكل عديدة ؛ منها تكفيره وإحراق كتبه وجعل آثاره في القائمة السوداء. قال في الدين منتقداً معاملة الناس به تجّاراً:

والدينُ في الناس حقلٌ ليس يزرعه ... غير الألى لهمُ في زرعه وطَرُ
من آمل بنعيم الخلد مبتشرٍ ... ومن جهولٍ يخافُ النارَ تستعِرُ
فالقومُ لولا عقابُ البعث ما عبَدوا ... ربّاً، ولولا الثوابُ المرتجى كفَروا
كأنما الدينُ ضربٌ من مَتاجرِهم ... إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

(جبران، آ د.ت، *المواكب*، ص ٣٣٨)

هذه الأبيات كلام شيخ يخرج عن المدينة، ويتبرم من الحياة فيها لتقاليدها الفاسدة والبالية وغير الإنسانية. التقاليد والأعراف التي جعلت الإنسان يعيش في ذل وحقارة ونفاق. وليس الشيخ الخارج عن المدينة إلا جبران نفسه، الذي طمح في شبابه طموحات

كثيرة، وواجهت عملياً طريقاً مسدوداً أمامه. كابد العراقيل والروادع الهائلة، وخابت آماله في إصلاح المجتمع وتقاليده والأعراف السائدة فيه.

ثم يردف إلى كلام الشيخ، كلام الشاب السعيد الذي يخرج من الغابة ويعزف على الناي، ناي السعادة والحياة المتحدة والفرح. يدّعي هذا الشاب ـ وهو جبران نفسه ـ بأن الحياة في حضن الطبيعة والغابة، حياة ترافق الحرية والجمال والوحدة والأنغام المنسجمة دون سيادة القوانين الظالمة وغير العادلة الوضعية التي تسبب انحطاط المجتمع الإنساني، وتؤدي أخيراً إلى الفرقة والخلاف بين أبناء البشر. هنا يجيب الشاب:

ليس في الغابات دينٌ — لا، ولا الكفرُ القبيحْ
فإذا البلبل غنّى — لم يقل هذا الصحيحْ
إن دينَ الناس يأتي — مثلَ ظلّ ويَروحْ
لم يقم في الأرض دينٌ — بعدَ طه والمسيحْ

(جبران، آ د.ت، *المواكب*، ص ٣٣٩)

شكى الشيخ المدينة وما تجري فيها من المساوئ والمظالم والاتهام على الآخرين، وتحدث الشاب الذي عاد من الغابة مليئاً بالتجارب والسرور الذاتي في ظل حياة متحررة ومتحدة ومجردة، وأردف قائلاً:

أعطني النايَ وغَنِّ — فالغِنا خيرُ الصلاةْ
وأنينُ الناي يبقى — بعد أن تفنى الحياةْ

(السابق)

الناي بيد الشاب ولماذا قال: أعطني الناي؟ بعد ما استمع الشيخ إلى الناي وعزف الشاب ألحان السعادة ومعرفة كمون الذات، مال الشيخ إلى نايه وكأنه أخذ منه وخاطبه الشاب: أعطني الناي وبادِر بالغناء؛ لأن ألحان هذا الناي ينم عن الوحدة والحياة المتلاحمة المنسجمة.

يرى جبران (آ د.ت) بأن الحرية مفقودة بين أبناء البشر:

قد اتبعت الإنسان من بابل إلى باريس، ومن نينوى إلى نيويورك، ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه. وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون. دخلت القصور والمعاهد والهياكل، ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر، فرأيت العامل عبداً للتاجر، و التاجر عبداً للجندي، والجندي عبداً للحاكم، والحاكم عبداً للملك، والملك عبداً للكاهن، والكاهن عبداً للصنم، والصنم تراب جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الأموات. فرأيت الأطفال يرضعون العبودية مع اللبن، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء، والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع، والنساء يهجعن على أسرّة الطاعة والامتثال (*العواصف*، ص ٣٧٢).

ثم يقول في بيان أدبي خلاب مثبتاً فقدان الحرية بين الناس:

ولما تعبت من ملاحقة الأجيال، ومللت النظر إلى مواكب الشعوب والأمم، جلست وحيداً في وادي الأشباح حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية. هناك رأيت شبحاً هزيلاً يسير منفرداً محدّقاً إلى وجه الشمس. فسألته: من أنت وما اسمك؟ قال: اسمي الحرية. قلت: وأين أبناؤك؟ قال: واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد. ثم توارى عن عيني وراء الضباب (السابق، ص ٣٧٤).

إن جبران يصرح أن الحرية الحقيقية لاتحصل للبشر في المجتمع الإنساني ؛ إن تحرّر من الناس فيؤتسر في سجن بناه من منازعه وأفكاره، بينما لايدري هو أسير لميوله. والطريق الوحيد لحرية الإنسان بناء المدينة الفاضلة الخيالية والعيش بها وفيها. وجبران هو الذي اختار الغابة رمزاً لمدينته الفاضلة :

والحرُّ في الأرض يبني من منازعِه ... سجناً له وهو لا يدري فيؤتسرُ
فإن تحرّر من أبناءِ بَجْدته ... يظلّ عبداً لِمن يهوى ويفتكرُ
فهو الأريبُ ولكن في تصلُّبه ... حتى وللحق بُطلٌ بل هو البَطَرُ
وهو الطليقُ ولكن في تَسرُّعِه ... حتى إلى أوج مجد خالد صِغرُ

(جبران، آ د.ت، *المواكب*، ص ٣٤١)

هذه الأبيات من كلام الشيخ الذي كان رمزاً وممثّلاً عائداً من المدينة، وأخبر الشاب بالواقع المدني الذي يعيش الناس فيه. ثم يجيب الشاب ويؤكد الحياة في الغابة حياة متسقة تعزف نغم الوحدة، وليست فيها أية مفارقة أو ازدواجية ؛ كل ما فيها يغنّي موسيقى واحدة منسجمة :

ليس في الغابات حُرٌّ ... لا، ولا العبدُ الذميمْ
إنما الأمجادُ سُخْفٌ ... وفقافيعٌ تَعـومْ
فإذا ما اللوزُ ألقى ... زَهرُهُ فوقَ الهَشيمْ
لم يقُل هذا حقيرٌ ... وأنا المَولى الكريمْ

أعطني الناىَ وغَنِّ ... فالغِنا مجدٌ أثيلْ
وأنينُ الناىِ أبقى ... من زنيم وجليلْ

(السابق)

٢. الحب

كان جبران بطبعه رومنطيقياً قبل انخراطه إلى التيار الفكري الرومنطيقي. وقبل جنوحه إلى الأدب الرومنطيقي والمحاولة في التعرف على الرومنطيقية الأروبية، نشأ بفطرته وبتأثير عن عوامل كثيرة بيئية كانت أو سياسية أو وراثية، رومنسي النزعة. ومن الميزات البارزة للأدب الرومنسي حب الطبيعة والإنسان وكل مظاهر الكون. لايمكن أن نفترض رومنطيقياً دون أن نلمس فيه ملامح الحب الشديد لأبناء نوعه والطبيعة التي يعيش فيها. نواجه في الآثار الأدبية التي تخص بالدراسات عن الرومنطيقية هذه الميزة ؛ أي ميزة ترجيح العاطفة على العقل وحب الطبيعة وبني الإنسان (جعفري، ١٣٧٨هـ . ش، ص ١٤ـ٢٣).

إن جبران يدّعي محبة الله والإنسان ؛ وفي حبه للإنسان لا يميز بين إنسان دون إنسان وعرق دون عرق ولون دون لون، بل يحب كلّاً : إما الصالح والفاسد، وإما القاتل و المقتول، وإما العالم والجاهل ؛ لأن الإنسانية في رأيه سلسلة متلاحقة مرتبطة ومتماسكة بعضها ببعض، وكل إنسان من أي جنس كان هو حصيلة تصرف المجتمع الإنساني كله، حيث يقول :

يا إخوتي وجيراني ! ويا أيها المارّون ببابي كل يوم ! لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير. قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلكم، وأحببتكم جمعياً كما لو كنتم واحداً. ففي ربيع قلبي كنت أترنم في جنانكم، وفي صيف قلبي كنت أحرس بيادركم؛ أجل، قد أحببتكم جمعياً : جباركم وصعلوككم، أبرصكم وصحيحكم، وأحببت من يتلمس منكم سبيله في الظلام، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام (ناعوري، ١٩٥٩م، ص ٣٥٦).

يقول ناعوري (١٩٥٩م) في هذا الصدد:

لذلك لا غرابة في أن يبذل للناس وأن تكون محبته لا تعطي إلا نفسها، ولا تأخذ إلا من نفسها ولا تملك شيئاً، لأنها مكتفية بالمحبة، أو هي بكلمة أخرى، محبة لأجل المحبة نفسها، لا لغرض ترابي آخر. وهل فوق هذه المحبة محبة يبذلها إنسان للناس؟ (ص ٣٥٧).

الحب من المواد الأساسية التي شيّدت صرح جبران الفكري والادبي. كان يحب العالَم والحياة ويرى المحبة من عناصر الكون ولبنته الأولى، كما نلاحظ هذه الرؤية نفسها عند صديقه الحميم ومرافقه في «الرابطة القلمية»[1]، ميخائيل نعيمة: «**عناصر الكون أربعة: م ح ب ت**» (نعيمة، ١٩٧٢م، ص ٤٣).

الحب عند جبران ليس لغرض مادي أو آني لجلب المصلحة أو دفع الضرر، بل فكرة سامية تسمو بروح الإنسان إلى الأفق الأعلى وأعالي الأخلاق الإنسانية: «**أحبّوا بعضكم بعضاً، ولكن لاتقيدوا المحبة بالقيود، بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطئ نفوسكم. ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقه، ولكن لاتشربوا من كأس واحدة**» (جبران، ب د.ت، *النبي*، ص ٨٩ـ ٩٠).

نعود مرة أخرى إلى «مواكب» جبران الذي ملأها بروحه الصافية و أثراها بدمه السائل وإحساسه العنيف والصادق:

والحُبُّ في الناس أشكالٌ وأكثرُها ... كالعُشب في الحقل لا زهرٌ ولا ثمرُ
وأكثرُ الحُبِّ مثلُ الراح أيسرُهُ ... يُرضي وأكثرُه للمدمن الخطرُ
والحُبُّ إن قادت الأجسامُ مَوكبَه ... إلى فراشٍ من الأغراض يَنتحرُ
كأنه ملكٌ في الأسر مُعتقَلٌ ... يأبى الحياةَ وأعوانٌ له غدروا

(جبران، آ د.ت، *المواكب*، ص ٣٤٢)

يتحدث جبران عن الظروف السائدة الأخلاقية بلسان الشيخ في المدينة أو المجتمع الإنساني، ويذهب أن الحب عند الناس لا يثمر ولا ينتج شيئاً إذا بعثته الأغراض المادية والأميال الدنيوية الخسيسة. ثم يتطرق إلى مدينته الفاضلة الخيالية ويقول:

ليس في الغاب خليعٌ ... يدّعي نبلَ الغرامْ
فإذا الثيرانُ خارَتْ ... لم تقل هذا الهيامْ
إن حُبَّ الناس داءٌ ... بين لحمٍ وعِظامْ
فإذا ولّى شبابٌ ... يختفي ذاك السَّقامْ
أعطني النايَ وغَنِّ ... فالغِنا حبٌّ صحيحْ
وأنينُ النايِ أبقى ... من جميلٍ ومليحْ

(السابق)

الحياة في الغاب بعيد عن الرياء والصنعة والنفاق الأخلاقي والاجتماعي و﴿**كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ**﴾ (الإسراء ١٧: ٨٤)؛ كل يهتف هتافه الباطني صراحة في المدينة الجبرانية؛ هناك خلوص وشفافية وصدق في القول والعمل.

---

١. هي رابطة أنشئت في أميركا الشمالية برئاسة جبران خليل جبران ومساعدة ميخائيل نعيمة وثمانية آخرون.

٣. العدالة

من البواعث الهامة التي سبّبت هجرة جبران من لبنان إلى أميركا الشعور بفقدان العدالة، وحرمان الناس من وسائل العيش الضرورية الأولية، وسيادة الاستبداد السياسي في البلاد العربية خاصة في لبنان، والأرضية غير المؤاتية لازدهار الفكر وسموّ الروح وحرية التعبير والعدل الذي كان في كلام إمام العدالة علي عليه السلام: «**العدل يضع الأمور مواضعها**» (*نهج البلاغة*، قصار الحكم، رقم ٤٣٧).

وكما قيل: العدل «**جعلُ الأشياء مواضعها**» و«**القصد والاعتدال في الأمور**» (مسعود، ١٩٩٣م، «العدل»)، ولكنه مفقود في لبنان وبين بني البشر. أما جبران، فيعشقه ومن طموحاته تنفيذه في المجتمع العربي والعالم الإنساني كله، بيد أنه خابت آماله في بلاده، وتركها إلى أميركا على أمل أن يشاهد سريانه في ديار الغربة، ولكن واجه عملياً برادع قوي، وهناك أزمات أخلاقية وإنسانية تمنع إقامة العدل. فأصبحت مشاعره مكبوتة وترك مدينة «نيويورك» و«بوسطن» الأميركيتين إلى الغابات والشلالات والجبال في نفس البلاد، وعاش وأصدقاءه نعيمة، ونسيب عريضة، وعبدالمسيح حداد و ... في أحضان الطبيعة؛ إذ إنهم تبرموا من الظروف السائدة في لبنان وأميركا أيضاً.

ثم اضطلع جبران بمهمته الإنسانية في الدفاع عن الفضيلة الإنسانية والعدالة الاجتماعية والأخلاقية. ووسائله في هذه المهمة الشاقة هي آثاره الفنية وكتبه الأدبية والفكرية. طرح حكاية أطلقت عليها «العدالة» أشير إشارة عابرة إليها:

دخل رجلٌ الأميرَ باحترام ووقار. بينما كانت إحدى عينيه مفقوءة والدم ينزف من نقرتها الفارغة سُئل: ما هذا؟ قال: إنني كنت لصاً أريد أن أسرق من أموال صيرفي، ودخلت من نافذة في منزل جاره الحائك، فلطم نوله عيني وفقأها. أرسل الأمير في الحال إلى الحائك وبعد حضوره قال: مهنتي بحاجة إلى عينين ولكن لي جار مهنته السكافة وتكفيه عين واحدة. أرسل الأمير إلى الإسكافي، فحضر واقتُلِعت عينه وهكذا تأيّدت العدالة (جبران، ب د.ت، *المجنون*، ص ١٩ـ ٢٠).

يرى جبران العدالة ناقصة التنفيذ ومنحرفة عن مجراها الصحيح، تجري بحق الضعفاء فحسب. بعض أنواع الظلم غير مرئية أو غير محسوسة: «**أي عقاب تنزلون بذلك الذي يقتل الجسد مرة ولكن الناس يقتلون روحه ألف مرة؟ ... وأنتم، أيها الراغبون في سبر غور العدالة، كيف تقدرون أن تدركوا كنهها إن لم تنظروا إلى جميع الأعمال بعين اليقظة في النور الكامل؟**» (جبران، ب د.ت، *النبي*، ص ١٠٨).

تجدر الاشارة هنا إلى أن جبران يتبرم إلى حد من أبناء نوعه ومتشائم بهم، ولكن يرى أن الحياة بنيت على أساس العدالة ونظام الكون نظام عادل في حكمه: «**كيف أخسر إيماني بعدل الحياة، وأنا أعرف أن أحلام الذين ينامون على الريش ليست أجمل من أحلام الذين ينامون على الأرض؟**» (جبران، ب د.ت، *رمل وزبد*، ص ١٥٦).

يرى جبران أنه على المجتمع الإنساني أن يزيل الشرّ قبل إزالة الشرور، وأن يزيل القتل قبل إزالة القاتل، وأن يزيل المعصية قبل إزالة العاصي. بعبارة أخرى، المكافحة للعلة أهم من إزالة المعلول: «**فالحقيقة أنه ما من جريمة يرتكبها رجل فرداً أو امرأة وحدها، إن جميع الجرائم يشترك الجميع في ارتكابها**» (جبران، ب د.ت، *يسوع ابن الإنسان*، ص ٢٣٣). وهناك ملاحظات في وجهات نظر جبران نشير إليها وننتقدها في نهاية المقالة في قسم الاستنتاج والنقد.

ويرى الرئيس المهجري الشمالي العدل ينفَّذ للمعوزين والمحرومين فقط؛ أما الأثرياء والأقوياء فهاربون من وجه العدالة بأنواع من الحيل حتى باسم القانون والقضاء والمحاماة و...:

والعدلُ في الأرض يُبكي الجنَّ لو سمعوا ... به ويستضحكُ الأموات لو نظَروا
فالسجنُ والموتُ للجانينَ إن صَغروا ... والمجدُ والفخرُ والإثراءُ إن كبُروا

فسارقُ الزّهرِ مذمومٌ ومحتقَرُ وسارقُ الحَقل يُدعى الباسلُ الخطرُ
وقاتلُ الجسم مقتولٌ بفعلته وقاتلُ الروح لا تدري به البشرُ

(جبران، آ د.ت، *المواكب*، ص ٣٣٩)

ثم يتطرّق جبران إلى مدينته الخيالية ويقول: هناك لا تسود القواعد الظالمة على مثال المجتمع الإنساني باسم القانون والعدالة والمكافأة و ... ، والأحكام لا تجري على علاتها، وكلٌّ حرّ في تصرفاته، ولا يفتخر البعض على البعض:

ليس في الغابات عدلٌ لا، ولا فيها العقابْ
فاذا الصّفصافُ ألقى ظِلَّه فوقَ الترابْ
لا يقولُ السّرو هذي بدعةٌ ضدّ الكتابْ
إن عدل الناس ثَلجٌ إن رأتْه الشمسُ ذابْ

أعطني الناىَ وغَنِّ فالغِنا عدل القلوبْ
وأنينُ الناىِ يبقى بعد أن تَفنى الذنوبْ

(السابق)

الغنا الذي اعتُبر عدل القلوب يرمز إلى وصول الإنسان الرسالي إلى الغاية المنشودة، وهو الذي يعشق بالمدينة الفاضلة، وامتلأ قلبه بالتجارب العاطفية والمحبة وإدراك وحدة الوجود والانقطاع الشخصي. ثم يُشعر هذه التجارب للآخرين على لسان شاب كان يعزف على ناي السعادة. أليس الشاعر من «يَشعر ويُشعر» (التونسي، د.ت، ص ٢٢٠ـ ٢٢١). الغنا في الأصل هو التجربه العاطفية الرومنطيقية التي كالشحنة يُفرغها الشاعر ويرتاح بإفراغها.

وفي نهاية هذا الموضوع نشير إلى كلامه الجارف في العدل: **«أيها العدل الخفي، الكامن وراء هذه الصور المخيفة، أنت أنت السامع عويل نفسي المودعة، ونداء قلبي المتهامل. منك وجدَك أطلب، وإليك أتضرع. فارحمني وارعَ بيمناك ولدي، وتسلّم بيسراك روحي!»** (جبران، آ د.ت، *عرائس المروج*، ص ٦٧).

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

٤. الولع الشديد بمعرفة الحياة

اشتاق جبران إلى معرفة الحياة، وكان أول من شق سبيل البساطة في التعبير عن خوالج النفس والحياة. عبّر عن الحياة والإنسان تعبيراً صادقاً وجميلاً. كان على طليعة الرعيل الذي كسر في الأدب العربي مقاومة القلعة الحصينة للمحافظين أمام حركة الأدب المعاصر الذي خرج من قوالبه الظاهرية، وتسرّب في أعمان كمون نفس الإنسان.

الأدب المعاصر قد انحصر نفسه في القشور ولّما يدخل اللباب، وجبران هو الذي أخرج هذا الأدب منها ومن خدمة الأمراء والحكّام والقصور، وجعل للأدب رسالة إنسانية عامة، فلم يمدح أميراً ولم يصف قصراً ولم يدافع عن القوميات والعروبة، بل شعر برسالة إنسانية أخلاقية أمام أبناء البشر كلهم.

لم يتمتّع جبران من لذّات الدنيا المباحة، ولم يتزوّج حتى يدرك معرفة الحياة؛ إذ إن الحياة العائلية في رؤيته تحول دون التأمل والنجوى لإدراك كنه الحياة والنفس الإنسانية.

«أنا» هي ألفُ الوجود وياؤه. من عرفها عرف كل شيء . من عرفها عرف لذة الألم وتذوق الطمأنينة الروحية حتى في أنكد حالاته، ومن جهلها جهل مرارة اللذة ولم يعرف سوى الألم حتى في أسعد أوقاته. بل الفرق ـ بين الناس ـ على قدر ما يضيق الواحد منهم «أنا» ويوسعها الآخر (نعيمة، ١٩٧٤م، ص ٢٠٣).

يقول الدكتور شفيق البقاعي (١٩٩٠م) في هذا المجال: «**يسوده [الأسلوبَ النثري للرابطة القلمية برئاسة جبران] التأملُ في هذا الوجود الإنساني، وفيه استلهام للطبيعة وتحرّر فكري وتعبيري، إلى جانب الجنوح نحو الخيال المحلّق في أجواء رمزية شفافة حيناً، ورومنطيقية عاطفية أحياناً**» (ص ٢٦٦).

يقول جبران (آ د.ت) في تأملاته الروحية:

سكوتيَ إنشادٌ وجوعيَ تخمةٌ — وفي عطشي ماء وفي صَحوتي سكرُ
وفي لوعتي عرسٌ وفي غربتي لقاً — وفي باطني كشف وفي مظهري ستر
وكم أشتكي همّاً وقلبي مُفاخر — بهمّي، وكم أبكي وثغري يفتر
نظرتُ إلى جسمي بمرآة خاطري — فألفيتُه روحاً يقلّصه الفكر

(جبران، آ د.ت، *البدائع والطرائف*، ص ٥٩٤)

ثم يقول:

يا نفس لولا مَطمعي — بالخلد ما كنتُ أعي
لحناً تُغنّيه الدهورْ
بل كنتُ أنهى حاضري — قسراً فيَغدو ظاهري
سرّاً تواريه القبور

(السابق، ص ٥٩٨)

هذه نماذج من تأملاته وحياته القلبية التي سكبها في قوالب الشعر. هناك حقيقة وهي أن جبران كما صرح نفسه في نهاية عمره «لم يقل كلمته بعد». حالاته الروحية وتأملاته الطويلة في ديار الغربة وبعد العودة في لبنان لّما تكشف. كل هذه أدّت إلى تعبير جبران المفعم بالتجارب الأصيلة والصادقة وفي كثير من الأحيان النادرة. «جبران رجل الطبيعة الغنية. إنه مزيج من فكر عميق، والتماع إيحائي، وإشراق نوراني، وعاطفة متأجّجة. وهو سلطة مسيطرة، وعقل غني، وسحر أخّاذ، ومثالية مطلقة، وإنسانية واسعة» (الفاخوري، ١٩٨٦م، ص ٢١٨).

حاول كثيراً في معرفة الحياة والإنسان، وانتهى في الأولى إلى وحدة الوجود، التقمص أو الحلولية وخلود النفس. و التقمص وتناسخ الارواح أو الحلولية ـ كما نعلم ـ فكرة واحدة أخذت عن الفكر البوذي الهندي وتعني حلول روح الإنسان الميت في جسم يعيش.

كثير من ملاحظات جبران الفكرية تنسجم والإسلامَ، وفي بعض المسائل تختلف عنه. يقول عن معرفة الإنسان: «**رأس الحكمة معرفة الذات**» (جبران، آ د.ت، *العواصف*، ص ٤٣٦). إنه سبر أغوار النفس البعيدة دون تعلّم أو تلمّذ في صفّ من صفوف الفلسفة أو الكلام، وصار من كبار الفلاسفة وعظام المتكلمين. «**فكر واحد يجيئك في سكينة الليل يسير بك إلى المجد أو إلى الجنون**» (جبران، آ د.ت، *الأجنحة المتكسرة*، ص ١٨٩). هذه إشارة عابرة إلى حياته الفكرية القلبية.

ويقول في الإنسان:

واجب الإنسان أن يكون سعيداً على الأرض، وأن يعلم سبل السعادة، ويكرز باسمها أينما كان. ومن لايشاهد ملكوت السماوات في هذه الحياة، لن يراها في الحياة الآتية؛ لأننا لم نجئ هذا العالم كالمنفيين المرذولين، بل جئنا كالأطفال الأغبياء لكي نتعلم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا (جبران، آ د.ت، *الأرواح المتمردة*، ص ١٣١).

رغم كل محاولات جبران هذه في معرفة الحياة والإنسان، لم يحصل كل ما أراد. وهذا بعضه يعود إلى أن الإنسان حلقة من حلقات العالم ومخلوق من الله وليس زمام الأمور والمقادير بيده؛ كما قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ونفسه لا تقدر على إتيان كل العظام من الأمور في العالم. قدرات الإنسان وطاقاته في مواجهة قضايا الحياة محدودة وليست بلا حدود وشطوط.

وعامل آخر أثّر في عدم إدراكه المقاصد والأهداف المنشودة هو اكتفاؤه بنفسه؛ لم يتبع ديناً ولم يستفد من المعارف الدينية من أي دين كان و إن كانت المسيحية وهي دين أسرته. عقل الإنسان بدون الوحي الإلهي ناقص؛ «يرى بعين واحدة» وينظر حقائق الكون من منظار واحد وناقص طبعاً.

٥. القيم الإنسانية والأخلاقية المبتكرة

تتجسد القيم الإنسانية والأخلاقية في آثار جبران الأدبية. برؤية عابرة تظهر هذه الميزة عند هذا الاديب الإنساني ظهور الشمس. يرى الأدب كمستشاره في الرابطة القلمية ـ ميخائيل نعيمة ـ ذا رسالة إنسانية سامية: «**للأدب رسالة سامية. ومن أنكر على الأدب رسالته، كان مارقاً عن الأدب**» (نعيمة، ١٩٩٠م، ص ٤٥). رأى جبران الأدب وسيلة للتعبير عن النفس الإنسانية والتعريف بالطاقات الكامنة البشرية وتفسير حالاته وحاجاته.

هذه الرؤية في الأدب جعلت جبران يهدف في آثاره القيم الإنسانية والأخلاقية السامية. لم ينس أبداً نشر الفضائل الأخلاقية وتبليغها والهجمة العنيفة على الرذائل القائمة في المجتمع البشري. هناك عناية بالقيم المذكورة في الأدب العربي من القديم إلى المعاصر، كما عند «لبيد بن ربيعة» ـ وهو شاعر مخضرم عنى كثيراً بالقيم الإنسانية والأخلاقية ـ و عند «الشريف الرضي»، وفي العصر المعاصر عند «حافظ إبراهيم» و«عباس محمود العقاد».

وبعد أن هذه الميزة قد نسيت عند كثير من الأدباء الكلاسيكيين المعاصرين، انتعشت وتبلورت من جديد في آثار أدباء المهجر الشماليين خاصة جبران خليل جبران. وإلى جانب عناية جبران الشديدة بالقيم، ليست أية إشارة في آثاره بالمجون والإباحية؛ وبعبارة أخرى، الأدب الجنسيّ لم يحتل أية مكانة عنده، بل هاجمه بعنف وصراحة نادرة: «**إن المؤمن يعيش كل الأيام وكل الليالي، أما غير المؤمن فلا يعيش سوى ثوان محدودة**» (جبران، آ د.ت، *البدائع والطرائف*، ص ٥٩٨).

إن كتابه *النبي*[١] مفعم من النقد و الثورة على القيم الخاطئة والمحاولة في إثارة الفضائل الإنسانية السامية. يقول منتقداً الناس في نظرتهم إلى الجمال: **«ليس الجمال فماً متعطشاً أو يداً ممدودة، بل هو قلب ملتهب، ونفس مفتونة مسحورة»** (جبران، آ د.ت، *النبي*، ص ١٣٠).

ويقول: **«اجعلني يا الله فريسة الأسد قبل أن تجعل الأرنب فريستي»** (جبران، ب د.ت، *رمل وزبد*، ص ١٥٥). ويقول: **«لو خُيّرت بين القوة على كتابة الشعر وما في الشعر غير المكتوب من الهُيام، لاخترتُ الهيام؛ فهو خير من الشعر»** (السابق، ص ١٦٢). ويقول في الحب: **«ولو كانت المحبة في اللحم، لكنت أحرقه بالحديد الحامي وأحظى بسلامتي، ولكنها في النفس، فلا يُبلَغ إليها»** (جبران، ب د.ت، *يسوع ابن الإنسان*، ص ٣٥٢).

جبران كان يتبع كل ينبوع من الفضيلة دون أية عصبية قومية ودينية و ... : **«هذا هو الفارض: روح نقية كأشعة الشمس، وقلب متقد كالنار، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال»** (جبران، آ د.ت، *البدائع والطرائف*، ص ٥٦٥). صاد الحق والأخلاق أينما كانا. طرح حكاية طفلين ولدا في مدينة واحدة جميلة مثيرة. واحد ابن الأمير والآخر ابن أرملة فقيرة. هاجم فيها بعنف وصرامة على الأعراف غير الإنسانية عند الناس: تعظيم أبناء الأمراء وتحقير أبناء الفقراء (جبران، آ د.ت، *دمعة وابتسامة ـ طفلان*، ص ٢٧٢ـ٢٧٣).

٦. فكرة الخلود والبقاء

فكرة الخلود والبقاء ميزة من ميزات جبران الفكرية. أدرك بتأمله وأدبه المهموس نظرية خلود الإنسان وبقاء الروح بالتقمص أو تناسخ الأرواح أو الحلولية. والإنسان عنده ليس مصداقاً خاصاً، بل سلسلة متلاحمة منه مذ بداية الكون إلى نهايته. هناك عوامل لتأمله في حقائق العالم والحياة والموت ثم الوصول إلى هذه الفكرة: التكوين النفسي، الغربة والتوق إلى الانعتاق من القيود المادية والنفسية والطبيعية الشرقية والروح الدينية المتأصلة في نفوسهم والرؤية المأساوية للحياة، والتأثر بفكر الشرق وفلسفة المتصوفين (عبدالدايم، ١٩٩٣م، ص ٥٠٩).

يقول مخاطباً النفس:

يا نفس ما العيش سوى ليلٍ إذا جَنّ انتهى
بالفجر، والفجر يدومْ
وفي ظما قلبي دليـل على وجود السلسبيل
في جرة الموت الرَّحومْ
يا نفس إن قال الجهول الروح كالجسم تزول
وما يزول لا يعـودْ
قولي له إن الزهـور تمضي ولكنّ البذور
تبقى وذا كنه الخلودْ

(جبران، آ د.ت، *البدائع والطرائف*، ص ٥٩٨)

خلود الإنسان بخلود روحه **«ولكن الأجيال التي تمرّ وتسحق أعمال الإنسان لاتفني أحلامه، ولا تضعف عواطفه. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد»** (جبران، آ د.ت، *عرائس المروج*، ص ٥٠)

---

١ . أثر لجبران خليل جبران كتبه بالإنكليزية (prophet)، وتُرجم بـ«النبي»، وطبع منه حتى الآن ملايين نسخة.

نتيجة البحث

جبران خليل جبران كان أديباً ومفكراً رسالياً. حاول كثيراً في تحويل الأعراف الشائعة غير الإنسانية في المجتمع، ولكن صار متعب النفس بمخالفة العرف العام في سلوكه ودوام الاعتراض على الناس ورجوعه صفر اليدين. فبنى مدينة فاضلة لنفسها كما بناها أفلاطون وفارابي وسنت أغوستين في تاريخ الفكر الإنساني الرسالي. ترك واقع الناس وعاش في برجه العاجي الخيالي. أقنع نفسه الجيّاشة بعيش في مدينته الفاضلة الخاصة به بعد محاولات كثيرة في إصلاح التصرفات الاجتماعية وشعوره بعدم جدواها، فوضع مقومات أساسية لمدينته وهي: الحرية، والحب، والعدالة، والولع الشديد بمعرفة الحياة، والقيم الإنسانية والأخلاقية المبتكرة، وفكرة الخلود والبقاء.

❖❖❖

المصادر والمراجع

أ) العربية

- **القرآن الكريم.**
- ***نهج البلاغة.*** (تحقيق صبحي الصالح). (١٣٦٥هـ. ش). قم: دار الهجرة.

١. البقاعي، شفيق. (١٩٩٠م). ***أدب عصر النهضة***. بيروت: دار العلم للملايين.

٢. التونسي، حمد خليفة. (د. ت). ***فصول من النقد عند العقاد***. مصر: مكتبة الخانجي ـ بغداد: مكتبة المثنى.

٣. جبران، جبران خليل. (آ د. ت). ***المجموعة الكاملة العربية*** *(الموسيقى، عرائس المروج، الأرواح المتمردة، الأجنحة المتكسرة، دمعة وابتسامة، المواكب، العواصف، البدائع والطرائف)*. [د. م]. [د. ن].

٤. ـــــــــــــــ . (ب د. ت). ***المجموعة الكاملة المعرّبة*** *(المجنون، السابق، النبي، رمل وزبد، يسوع ابن الإنسان، آلهة الأرض، التائه، حديقة النبي)*. [د. م]. [د. ن].

٥. عبدالدايم، صابر. (١٩٩٣م). ***أدب المهجر***. القاهرة: دار المعارف.

٦. مسعود، جبران. (١٩٩٣م). ***رائد الطلاب*** (ط ١٢). بيروت: دار العلم للملايين.

٧. ناعوري، عيسى. (١٩٥٩م). ***الأدب المهجري في أميركا***. القاهرة: دار المعارف.

٨. نعيمة، ميخائيل. (١٩٧٤م). ***جبران خليل جبران*** (ط ٧). بيروت: مؤسسة نوفل.

٩. ـــــــــــــــ . (١٩٩٠م). ***دروب*** (ط ٩). بيروت: دار العلم للملايين.

١٠. ـــــــــــــــ. (١٩٧٢م). ***كرم على درب*** (ط ٦). بيروت: مؤسسة نوفل.

ب) الفارسية

جعفري، مسعود. (١٣٧٨هـ. ش). ***سير رمانتيسم در اروپا***. تهران: نشر مركز.